الثقافة القرآنية: طريق الهداية والنجاة

حبيب هاشم

يقول عزّ من قائل: **((إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويُبشّر المؤمنين)).**

هكذا أخبر الله سبحانه وتعالى وأرشد إلى إن سبيل الهدى الحق، هو وحيه ورسالته الخالدة إلى الناس أجمعين، فالقرآن الكريم هو سبيل الهدى والرشاد إلى الأحسن والأوفق والأقوم، وليس فيه إلا البشارة بالخير لمن التزم به وتمسّك بهداه، ولم يكتسب هذه الخاصية إلا لأنه من الله الخالق العليم الخبير.

لذلك كان الاشتغال بالقرآن الكريم وعلومه، عِلماً وتعلّماً وتعليماً، تحققاً وتخلّقاً، تربية ودعوة وتبليغاً، هو من الاهتداء الحقيقي، إلى مصادر الثروة الحقيقية في الأمّة، وإلى العِلم الحقيقي الذي به تتنوّر العقول وتهتدي، وبه تزكو النفوس وترتقي، وبه تصلح الأمّة وتعتلي.

كما ان استنطاق القرآن الكريم وما فيه من الهدى، واستمداد ما فيه من العلوم والهداية، لهو البداية الموفقة في الطريق الصحيح، نحو استعادة الأمّة وظيفتها في القيام بأمر الله، واستئناف دورها الحضاري الذي ظل مُعطّلاً، خلال قرون عديدة.

ولقد أصبحت الأمّة اليوم على وعي كبير، بهذه النعمة العظمى، والمكانة الكبرى للقرآن الكريم، في إعادة إحياء الأمّة وبعثها من جديد، كما بُعثت على عهد رسول الله (ص) والأئمة الأطهار (عليهم السلام).

ولا سبيل إلى ذلك إلا بتفعيل القرآن الكريم، وإعادة حاكميته في واقع الإنسان والمجتمع والأمّة، ولن يتحقق ذلك، ما لم تُحصر جهود الأمّة التي بذلت من أجل استلهام هدايته وتقويمها، وبيان نقاط القوة والضعف، وتبيّن مناطق الفراغ التي ما تزال في حاجة إلى خدمة جديدة، وفق رؤية علمية ومنهجية جديدة .

المهم هو تحديد واجبات الأمّة للنهوض بالقرآن الكريم من جهة، والنهوض بالأمّة من جهة ثانية، إذ ثبت باليقين أنه لا نهوض حقيقي للأمّة، من غير النهوض بالقرآ ن الكريم وعلومه، والعودة الصادقة إليه، حفظاً وتحفيظاً، علماً وتعلّماً وتعليماً، تربية ودعوة وتحكيماً.

إن هذا القرآن الذي أكرمنا الله به هو منهاج للفكر والتفكير، ومصدر للتعبير وتدبير شؤون الحياة الفردية والأسرية والعامة، وليس المراد منه أن يكون مجموعة أفكار توضع في خزانة العقل، وإنما هو توجيهات ربّانية، ورحمة مُنزَلة من الله عزّ وجلّ في كتابه، لتحلّ فينا قلباً وقالباً، في الجانب النظري وفي الفكر والعقل والقلب، ثم تتحوّل إلى سلوك.

إذن، فالقرآن الكريم في طبيعته تطبيقي، وليس نظرياً وفكرياً فقط، بل هو أعمال وأفكار تظهر في سلوك الإنسان، وكان أكمل المؤمنين فعلاً، هو رسول الله (ص)، وقد شهد الله له بذلك، فقال: **((وإنك لعلى خلق عظيم))**، لأن القرآن الكريم حالّ فيه بمعناه ، وحالّ فيه بعمله.

والقرآن الكريم ذو طبيعة تطبيقية، وينبغي أن يظهر في المؤمن سلوكاً وعملاً ملموساً، ويشمل الخلُق الحسن في كل جوانب الإنسان، وحُسن الخلق مع الله تعالى يشمل بالدرجة الاولى، الإخلاص للربوبية.

ومن آداب القرآن الكريم، حضور القلب، والتحسّس بمقصد الآيات الشريفة، وما تعنيه، وحيث إن مقصد القرآن هو الهداية إلى سبيل السلام، والخروج من جميع صور الظلمات، إلى هالة النور والهداية إلى الطريق المستقيم: **((إن ربي على صراط مستقيم))**(هود ٥٦).

وقد كثرت الدعوات إلى التفكّر وتمجيده وتحسينه في القرآن الشريف، قال الله تعالى: **((وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون))**(النحل ٤٤).

وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكّر، لأن غاية إنزال الكتاب السماوي، هو إثارة نزعة التفكير في الإنسان.

والآيات الكريمة من هذا القبيل كثيرة، فلما نزلت الآية القرآنية الكريمة: **((إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لقوم يوقنون))**(البقرة ١٦٤)، قال رسول الله: ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها.

والأساس في هذا المجال، أن يفهم الإنسان ما هو التفكير الحسن، للوصول إلى غاية الكمال، وطريق السعادة وسبل السلامة، ليصبح التفكّر في القرآن، باباً للاستفادة من المعارف، كشفاء من الأمراض الروحية: **((وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً))**(الإسراء ٨٢).

ومعنى قول أمير المؤمنين (ع): وتعلّموا القرآن، فإنه ربيع القلوب، واستشفوه فإنه شفاء الصدور. ولا يُطلب من القرآن، شفاء الأمراض الجسمانية فقط، وإنما شفاء الأمراض الروحانية التي هي هدف القرآن.

إن القرآن لم ينزل لشفاء الأمراض الجسمية، وإن كانت تحصل به، ولكن هدفه الأكبر، شفاء الأمراض الروحية والنفسية.

((وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً))

إذا كان التواضع صفة مميزة لعباد الرحمان، لقول الله سبحانه وتعالى: **((يمشون على الأرض هوناً))**(الفرقان ٦٣)، فإن حالهم مع الناس، وخاصة أهل الجهل والسفه: **((وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً))**، أي قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم واللوم، لا يردّون على السيئة بالسيئة، وإن كانوا قادرين على أن يكيلوا الصاع صاعين، ولكنهم لا يشغلون أنفسهم بالردّ على الجهّال والسفهاء، لكنهم يقولون قولاً سديداً يليق بهم، مع رغبة الله في ثواب الآخرة، كما وصف الله المؤمنين بقوله: **((وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالو لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين))**(القصص ٥٥)، فلنا طريق ولكم طريق، لا نريد أن نسير في طريق الجهل التي لا يرضي الله سبحانه وتعالى.

وكلمة ((الجاهلون)) ليس معناها الجهل ضد العلم، ولكنه أكثر ما يكون ((الجهل ضد الحلم)).

فالجاهل السفيه قد يحمل شهادة عالية، وقد يستلم أرفع المناصب، ولكنه جاهل في نفسه، سيء الخلق، قد يكون لسناً في الكلام، وقد يكتب في كبريات الصحف، ولكنه سفيه جاهل، يمكّن لسانه وقلمه من أعراض الشرفاء من الناس.

والجاهل هنا من غلّب الهوى على الحق، وكل من غلّب الشهوة على العقل، وكل سيء الخلق فهو جاهل، وعباد الرحمان لا يشغلون أنفسهم بمعركة دائمة مع الجاهلين.

إنهم نزّهوا ألسنتهم أن تُلوّث باللغو من الكلام، فلسان المؤمن جدير أن يُرطّب بذكر الله عزّ وجلّ، بتلاوة القرآن الكريم، بالتسبيح، بالتكبير والاستغفار.

أما بالردّ على الجهّال، وما أكثرهم، فهم ينزّهون ألسنتهم عنه، لأن الوقت ثمين، وهم يحرصون على عدم إضاعة العمر في مثل هذا الباطل، من هنا كان من أوصاف المؤمنين:**((قد أفلح المؤمنون، الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون))**(المؤمنون ١ – ٣).

إذاً هناك مرتبتان، يرقى إليهما الإنسان وهما: مرتبة العدل، مرتبة الفضل، أما مرتبة العدل، فهي أن تقابل السيئة بمثلها، ومرتبة الفضل أن ترتفع عن ذلك، فتقابل السيئة بالحسنة، كما قال الله تبارك وتعالى: **((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم))**(فصلت ٣٤).

إذاً هنا طريقتان: طريقة الحسنة، وطريقة أحسن منها، فليدفع بأحسن الطرق، وبأحسن الوسائل، بالكلمة الطيبة، بالفعل الجميل، بالإحسان بتقديم خدمة، حتى لمن أساء إليه، فيتحوّل العدو إلى صديق، لأن الانسان أسير الإحسان.

نحن نلاحظ انه من أجل كلمة يسمعها أحدهم، يقيم بسببها حرباً، وتمتلىء نفسه حقداً، ويتخذ من قالها عدوّاً، ولعل الكلمة قِيلت في ثورة غضب.

أما عباد الرحمان فليسوا كذلك، فهم إذا غضبوا فإنما يغضبون لله تعالى، يغضبون لحقّ العقيدة، يغضبون لحقّ الأمّة. فمن أراد أن يكون من عباد الرحمان، فليدع هذه المعارك التي يفتعلها الناس، فالدنيا أهون من أن يتعارك عليها الناس.

فنسأل تعالى أن يفقّههم في دينهم، وأن يجعلهم من عباد الرحمان: **((الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب))**(الزمر ١٨).

يقول الله سبحانه وتعالى: **((وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها))**(النمل ١٢)، ولعل أعظم النعم هي الهداية إلى الإسلام، من خلال خاتم الأنبياء محمد (ص)، وأئمة أهل البيت (ع).

هذه النعمة تشحن النفوس الإنسانية بالمعنويات، وتحقّق حالة روحية فريدة، وتجعل المؤمن مطمئناً إلى حاضره ومستقبله، في دنياه وآخرته، وهذا ما يؤدّي إلى اليقين والاستقرار والتسليم التي تفضي إلى السعادة الحقيقية.

والملاحظ إن هذا الأمر يتحقّق من خلال المؤشرات التالية:

المنهج المستقيم: وهو منهج الإسلام بدعامتيه، القرآن والعترة النبوية. هذا المنهج طريق الهداية المستقيم، من خلال الثقلين ، كتاب الله، والعترة الطاهرة، ولا عذْر لمعتذر بأن لا يقتدي بمن يأخذ بيده إلى المنهج المستقيم.

البشارة بالنصر: سينتصر دين الله تعالى في نهاية المطاف مهما علا شأن الكافرين والمنحرفين في هذه الدنيا، فالله يمهل ولا يهمل، وإرادته حاكمة في مدّ الكافرين والمؤمنين، إلى أن تنتهي البشرية إلى وراثة المؤمنين، قال تعالى: **((ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين))**(القصص ٥).